التحديات التعليمية للمصطلح البلاغي بين المدرستين الكلاميتين المتقدمة والمتأخرة في ظل الرقمنة. الجاحظ والقزويني نموذَجَين.

Challenges of Teaching Rhetorical terminology at the Time of the Late and Early Kalam Schools in Light of Digitization: Al-Jahiz and Al-Qazwini as models

إلياس لوناس*

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)

Lounasilyas20@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/08/23	تاريخ: القبول: 2022/11/24	تاريخ النشر: 2022/12/31

المستخلص: تعدّ البلاغة العربية من أغنى المكاسب التراثية العربية، إلا أنها لا تزال على هيئتها التقليدية، رغم اختلاف غاياتها عبر العصور، ما يجعلها بحاجة إلى إخراج عصري، لتكون في متناول المتعلم والباحث على السوّاء، ولما كان الجهاز المصطلحي من أهم الآليات التي يمكن استثمارها لهذا الغرض، تأتي هذه الدراسة لتقف على أهم المظاهر التمييزية للمصطلح البلاغي بين المدرستين الكلاميتين المتقدمة والمتأخرة، مع اتخاذ كل من الجاحظ والقزويني كنموذج للأولى والثانية على التوالي، بغرض الوقوف على مدى التناسب مع الغاية التعليمية، والإحاطة بالبنية المفهومية بما يتناسب مع الصفة العلمية التي تتطلب دراسة ذات العلم لذاتها لا لغيرها.

كلمات مفتاحية: البلاغة العربية؛ المصطلح البلاغي؛ الرقمنة؛ المدرسة.

Abstract

Arabic rhetoric is one of the valuable Arab heritage-based gains, but it is still in its very early form despite its different purposes through the ages. This study attempts to manifest the most important distinguishing aspects of rhetorical terminology as

introduced by the early Kalam school represented in Al-Jahiz, and late Kalam school represented in Al-Qazwini. This is carried out in view to determine the extent of consistence with the educational purpose, and to take note of the conceptual structure in terms of the scientific capacity that requires a relevant study of science for its own sake.

Keywords: Arabic rhetoric; rhetorical terminology; digitization; school.

مقدمة:

لقد مرّت البلاغة العربية منذ نشأتها بمراحل عديدة، أسهمت في تطورها وأخرجتها من كونها مجرّد ملحوظات تدون بعض الحوادث والأخبار التي عيشت مشافهة، إلى مصنفات ضخمة أسست للبلاغة العربية، في مقابل ذلك كان لظهور الفرق الكلامية الدور الفاعل في بلورة التفكير البلاغي، وأصبح للبلاغة مسرح حقيقي ارتبط بالقرآن الكريم والاختلاف في فهم آياته، حيث شاعت المناظرات التي كانت الحجة فيها هي الفيصل، فيكون الغالب متبوعا والمغلوب تابعاً.

إنّ من أشهر أعلام المدارس الكلامية المتقدمة، الجاحظ الذي كان إمام المعتزلة، وابن قتيبة الذي كان من أهل السنة...وكان لكل واحد من هؤلاء الأعلام حجته وحنكته البلاغية، حيث أسهمت تلك الجهود في تجاوز مرحلة النشأة، ووصلت إلى مرحلة شهدت فيها نضجاً غير مسبوق.

ومع توالي الأزمنة وتتابعها، ومرور البلاغة العربية بمرحلة التوهج مع عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الذي استفاد من تلك الجهود المدونة في المصنفات البلاغية التي سبقته، استطاع عبد القاهر أن يضع أكثر من نظرية بلاغية، ولعل أشهر نظرياته على الإطلاق هي نظرية " النظم ".

أما المرحلة الأخيرة التي يدونها مؤرخو الأدب العربي للبلاغة العربية، هي التي عُرفت بمرحلة الجمود، والتي ألقيت فيها البلاغة العربية في حضن المدرسة الكلامية المتأخرة، ممثلة في أبي يعقوب السكاكي ابتداءً في القسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم، ثم تلميذه القزويني في " تلخيص المفتاح"، ثم في " الإيضاح"، حيث قيل في حق البلاغة إنها لم تعد أكثر من قوالب جامدة لا روح فيها، ووصف السكاكي بـ" الجاني".

وتأتي هذه الدراسة لتشكل مقاربة للمصطلح البلاغي بين المدرستين الكلاميتين المتقدمة والمتأخرة، مع اعتماد الجاحظ والقزويني أنموذجا، وذلك لنقف على حقيقة الإسهامات البلاغية للمدرستين.

فما هي نقاط الاتفاق والاختلاف بين الجاحظ والقزويني في المادة والمنهج والأهداف؟

وإلى أي حد يمكن أن تصل إليه قدرة المدرستين على مقارعة الغاية التعليمية التي يتطلبها العصر الحاضر؟

أولا: المصطلح البلاغي عند الجاحظ[1]:

قد يُعد الحديث عن المصطلح البلاغي عند الجاحظ في نظر البعض بالمرتبة نفسها التي يتميز بها عند القزويني، وذلك من منطلق أنّ الجاحظ في نظر الكثير من النقاد والبلاغيين هو مؤسس البلاغة العربية في صورتها الأولى على الأقل، وإذا كان ذلك كذلك، فإننا بعكوفنا على كتب الجاحظ، فإننا نقف على مهد المصطلح البلاغي، قبل أن يتطور ويصل إلى صورته النهائية التي لم يعرف بعدها أي وجه جديد.

يعد المصطلح البلاغي لدى الجاحظ فتيا، ولن يكون ذلك ذا غرابة، بالنظر إلى كونه أحد مؤسسي الدرس البلاغي، فحتى وإن سما نجمه، وعلا قدره في البحث البلاغي، إلا أنه سيعتريه النقص لا محالة.

وسنقف فيما يأتي على بعض المظاهر التمييزية للمصطلح البلاغي عند الجاحظ:

1. الاستطراد:

الاستطراد عند الجاحظ هو ذلك التحول إلى ما قد يعد خروجا عن موضوع إلى آخر حتى لا يُصاب القارئ أو السامع بالملل، فهو سليل المؤانسة، وقد صرح بلفظ صريح في قوله: «أنا أعلم لو فسّرت لك معاني هذه الأشعار وغريبها لكان أتم الكتاب وأنفع لمن قرأ هذه الأبواب، ولكني أعرف ملالة الناس الكتاب إذا طال»[2].

كما يقول: «قد عزمت- والله الموفق- أني أوشّح هذا الكتاب وأفصّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث ليُخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل، فإنّي رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلّا في طريق الرّاحة التي إذا طالت أورثت الغفلة، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا من ذلك كلّه إلّا أن تستفيدوا خيرا»[3].

وفي هذا تصريح واضح من قبله بأنه يقصد بالاستطراد أن يأسر المتلقي وبأن يجعل له نصيبا من الترويح على نفسه، حتى لا يصيبه الملل مما يلقى إليه، فينتهي عن القراءة أو الاستماع، وهو وإن كان قد ذكر سبب لجوئه إليه على سبيل الاستحباب، إلّا أنّ هذا الأسلوب نفسه قد تعتبره طائفة من القراء أو المستمعين، أحيانا، خروجا عن الموضوع، أو إطنابا فيما حقه الإيجاز، بالنظر إلى كون هذا الأسلوب قد يستغرق صفحات عديدة أحيانا، بالنسبة للكتاب، وأبيات عديدة من القصيدة بالنسبة للشعراء، إلا أن مدار اللجوء إليه كما يرى الجاحظ هو الإفادة.

3. مراعاة مقتضى الحال:

هو من المفاهيم التي اعتنى بها الجاحظ، وأولاها اهتماماً واسعاً في طيّات كتبه، والحق أنّ الجاحظ قد كان من السباقين إلى التفطن إلى اختلاف درجات الكلام، خاصة في القرآن الكريم، وكان يبرر ذلك بكون الخطاب القرآني يفرّق بين حالات المخاطبين واختلاف مقاماتهم، كما وقف على الكثير من الشواهد من كلام العرب، حيث عرَض إلى قول دؤاد بن حريز الإياديّ:

يَرْمُون بالخُطب الطِّوال وتارةً وَحْي المَلاَحظ خِيفَةَ الرُّقباءِ[4]

ثم عقّب على ذلك بقوله: «فمدح كما ترى الإطالة في موضعها والحذف في موضعه»[5].

وذكر الجاحظ أنّ البلغاء إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا، فللإطالة موضع وليس ذلك بخطل وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز»[6].

وقال في موضع آخر: «ومن علم حقّ المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصرا نولا مشتركا، ولا مضمنا، ويكون مع ذلك ذاكر لما عقد عليه أوّل كلامه، ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقا، ولهول تلك المقامات معاودا، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[7].

ورغم ثراء وتشعب المبحث الخاص بمقتضى الحال، وانتشار الحديث عنه في معظم كتب الجاحظ، إلا أنّه لم يكن ليفرد له مبحثا خاصا، وإنما كان موضوع مقتضى الحال شتاتا في كتبه، إلا أنّه قد اكتشف الكثير من أسرار ولطائف مراعاة مقتضى الحال، وكان واعيا به كمفهوم ينبغي الالتزام به أثناء كل كلام، حتى يحقق الكلام المقاصد التي قيل لأجلها في أحسن صورة.

4. النظم:

تحدّث الجاحظ عن النظم وسمّى أحد كتبه «نظم القرآن» وذهب إلى أنّ كتاب الله معجز بنظمه البديع «الذي لا يقدر على مثله العباد»[8]، وذكر مصطلح النظم عند حديثه عن نظم الخطب ونظم القرآن ونظم المعاني، وكانت أكثر دراسته للنظم قائمة على شواهد من كلام العرب، وذكر بيتا أنشده خلف الأحمر للعرب، وهو قوله:

وبعضُ قريضُ القومِ أَولادُ عَلَّةٍ يَكُدُّ لسانَ الحافظِ المتحفّظِ[9]

ومعنى أولاد علة أبناء رجل واحد من أمهات شتى.

ومهما شاع بين عوام القراء من كون الجاحظ لا يرجع المزية إلى العلم بمعاني الألفاظ لأن العلم بها مشترك بين عامة الناس وخاصتهم، إلا أنّ حقيقة الأمر، وما يُعوّل عليه بإشارته إلى كون مدار الأمر في الكلام عائد إلى الألفاظ، لم يكن يومئ به إلى الألفاظ من حيث هي الألفاظ لها حركاتها وسكناتها وأوزانها ولكن من حيث ارتباطها مع أخواتها فتكون وحدة متلائمة يتصل بعضها ببعض في تركيب سوي نطلق عليه كلمة النظم والصياغة[10].

وفي هذا إشارة واضحة أيضا إلى أن الجاحظ قصد النظم في الكلام ولم يقصد اللفظة المفردة، والقول بالعكس هو في نظرنا قراءة قاصرة لكتابات الجاحظ، ومما يدعم هذا القول هو أنّه قد نوّه إلى رأي بشر بن المعتمر من قبله بأن بلاغة الكلام بحلاوة اللفظ وحسن المعنى.

5.المزدوج:

ذكر الجاحظ أمثلة لمزدوج الكلام، وأشار إلى الكلام المزدوج وغير المزدوج، إلا أنه لم يقم بتوضيحهما أو التفريق بينهما، رغم أنّ الشواهد التي أوردها تشير إلى معنى الازدواج والتعادل بين الجمل والعبارات، وبينما ذكره في مواضع مختلفة من كتاب " البيان والتبيين "، لم نجد له أثراً في كتاب " الحيوان "، والحق أن المواضع التي ذكر فيها هذا المصطلح في كتاب البيان والتبيين، لم يكن يشرحها، إلا قليلا، وما كان شرحا لها لم يزد على شرح بعض ألفاظها، بينما لم يكن ليبين محل الشاهد فيها في أي موضع من المواضع الثلاثة التي وردت فيها.

ولعل أوضحها هو حين ذكرها في سياق تفريقه بين النثر والقوافي والأسجاع، بقوله: «النثر: الكلام المنثور، القوافي :خواتم أبيات الشعر، والأسجاع: الكلام المزدوج على غير وزن»[11].

ولعل هذا التعريف الذي ذكره كمفهوم لـ " السجع يجعل مصطلح " المزدوج" يميل إلى الوضوح قليلا، ومن الأمثلة التي ذكرها: قوله .عليه الصلاة والسلام، في معاوية: «اللهم علّمه الكتاب والحساب وقه العذاب»[12].

6.التورية:

ومضى الجاحظ على خطى المتقدمين الذين أشاروا إليها، وإن لم يعنوا بها كالجاحظ الذي أراد بها التغطية واستعمال الحيلة، ومن السياقات القليلة التي ذكرها فيها، قوله: «وإنما سمّى الله - عزّ وجلّ- الكافر في باطنه المورّي بالإيمان، والمستتر بخلاف ما يسرّ بالمنافق، على النافقاء والقاصعاء، وعلى تدبير اليربوع في التورية بشيء عن شيء. »[13].

7. البيان:

والحق أنّ مفهوم البيان عند الجاحظ واسع في معانيه وهو الكشف والإيضاح والفهم والإفهام، قال الجاحظ: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[14].

واستمرت كلمة «البيان» في حمل هذا المعنى العام، حتى إذا ما دخلت في مضمون الدراسة البلاغية صار لها مدلول آخر يختلف عما كان متعارفا عليه، وقد كان الجاحظ سباقا في استعمال اللفظة بمفهومها القريب من المفهوم الاصطلاحي وتجلّى ذلك خصوصا حين سمّى أحد كتبه «البيان والتبيين»، وجمع فيه كثيرا من المسائل البلاغية تحت هذا الاسم، ولربما أمكننا القول عن تعريف جعفر بن يحيى الذي ذكره الجاحظ إنه كان من أقدم ما دوّن حول تعريف البيان، حين قال له ثمامة: «قال ثمامة: قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟

قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لا بدّ منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة، بريئا من التعقيد، غنيا من التأويل، وهذا هو تأويل قول الأصمعي: «البليغ من طبّق المفصل وأغناك عن المفسر»[15].

8. البديع:

يذكر الجاحظ أنّ الرواة استخدموا مصطلح البديع وأطلقوه على المستطرف الجديد من فنون الشعر إلى جانب بعض الصور البيانية التي يوردها الشعراء، فتزيد أشعارهم من صفات الحسن والجمال، وقال الجاحظ معلقا على بيت الأشهب بن رميلة:

هُم ساعدُ الدَهرِ الذي يُتقى به وما خيرُ كفٍّ لا تَنُوء بسَاعدِ[16]

فقوله: «هم ساعد الدهر» إنّما هو مَثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع»[17]، ثم قال: «والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كلّ لسان، والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار»[18].

ومعنى هذا الكلام أنّ الجاحظ كان يطلق على " طريف الاستعارة" مصطلح البديع، لكن على سبيل الرواية عن رواة الشعر، فالتسمية ليست له أصالةً، بل هي لرواة الأدب، إذ ظهرت أول ما ظهرت على لسان رواة الشعر[19].

9. الإطناب:

تحدث الجاحظ عن الإطناب فقال: «وقد بقيت- أبقاك الله- أبواب توجب الإطالة وتحوج إلى الإطناب، وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة، ووقف عند منتهى البغية»[20].

وقد أولى الجاحظ "التكرار" أهمية بالغة وأورد بعض المأثورات فيه؛ ومن لطيف ما أورده قوله: «جعل ابن السماك يوما يتكلم، وجارية له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه؛ لو لا أنّك تكثر ترداده. قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت: إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد ملّه من فهمه[21]، وأعقب الجاحظ بقوله : «وجملة القول في الترداد أنّه ليس فيه حدّ ينتهي إليه، ويؤتى على وضعه وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص، وقد رأينا الله ردّد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود وكذلك ذكر الجنة والنار وأموراً كثيرة، لأنّه خاطب جميع الأمم»[22].

ولعلنا نلاحظ من خلال هذا الشاهد أنّ مفهوم الإطناب عند الجاحظ يختلف عما عهدناه عند المتأخرين، وقد ذكر محمد علي زكي أن الإطناب عند الجاحظ سليل الإطالة بقوله:

«والإطالة والإطناب مترادفان ومقابلان للإيجاز عند أبي عثمان، فهما عنده كل ما جاوز مقدار الحاجة من الكلام ولم يقف عند منتهى البغية[23]» .

10. الاقتباس:

روى الجاحظ عن عمران بن حطان أنه قال: «إنّ أول خطبة خطبتها عند زياد أو عند ابن زياد .فأعجب بها الناس وشهدها عمي وأبي، ثم أني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن»[24].

والحق أن كلام الجاحظ عن الاقتباس يجعله مقتصراً على ذكر شيء من القرآن على وجه التحديد، وربما من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يفسر قولهم عن الخطبة التي تخلو من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية بتراء.

11. المذهب الكلامي:

وقد جعله ابن المعتز خامس فنون البديع، وجاء على لسانه ما فيه نسبة هذا المصطلح إلى الجاحظ، كأول من أطلقه على هذا النوع، حين قال: «وهو مذهب سماه الجاحظ المذهب الكلامي، وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئا، وهو ينسب إلى التكلف، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ولم يحدد هذا الفن، ولعله يريد به اصطناع أساليب الفلاسفة والمتكلمين في الجدل والاستدلال، ولذلك نفاه عن القرآن الكريم»[25].

وعلى الرغم من وجود المفهوم إلا أننا لم نقف على المصطلح في أيّ كتاب من كتب الجاحظ، ولكنه لا ينفك من أن يسخر ممن يتكلفون في تأدية الكلام تشبها بالمتكلمين.

1.2. المصطلحات التي ذكر معانيها دون الاصطلاح عليها:

1. في الهزل المراد به الجد:

وقد طبعت كتابات الجاحظ بهذا النوع، حيث كان يذكر بعض الفصول من الهزل استنشاطاً للقارئ[26]. والظاهر كما سبق الذكر أن الجاحظ كان يورد هذا الغرض استنشاطاً للقارئ، وترويحا عنه، وإحياءً لنفَسه، حتى لا يمل القارئ من استمرار الكاتب على الأسلوب

ذاته طيلة صفحات الكتاب، ولا يعني أن لجوء الكاتب إلى هذا الأسلوب هو من قبيل الاستطراد الذي قد يبتعد عن مضمون الكلام أحيانا، وإنما يكون تتمة واستمراراً لما تقدم الحديث عنه بأسلوب مغاير يقصد من خلاله إعادة بعث نفس جديد في الكتاب.

ولهذا قال عن إبراهيم بن هانئ بعدما ذكر أنه كان ماجنا خليعا وكثير العبث متحررا، «ولو لا أنّ كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجدّ لما جعلته صلة الكلام الماضي...»[27]. أي أنّ الكلام الذي سيورده الجاحظ على لسان إبراهيم بن هانئ والذي كان يرويه على سبيل الهزل، لم يذكره الجاحظ هزلاً، وإنما على سبيل الجد، إلحاقا له بما تقدم الحديث عنه.

ومما ذكره على لسان إبراهيم بن هانئ: قوله: «من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى، ويكون شيخا بعيد مدى الصوت. ومن تمام آلة الزّمر أن تكون الزامرة سوداء»[28].

2. التتميم:

ومن تمام ما أورده الجاحظ فيه، أنه عقد بابا قال في أوله: «وباب آخر ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به ويفضلون إصابة المقادير ويذمون الخروج من التعديل»[29].

وقد ظهرت الإشارات إلى مفهوم التتميم في عهود متقدمة، وكان الجاحظ من أوائل من تفطنوا إلى هذا النوع، و عقد له باباً في كتابه "البيان والتبيين"، مطلقاً عليه مصطلح "اللغز في الجواب"، وجاء بعدة أمثلة، منها ما حكاه عن لقمان الحكيم، بقوله: وقال لقمان لابنه وهو يعظه :يا بني، أزحم العلماء بركبتيك، ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأبق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كلّ الرفض فتكون عيالا، وعلى أعناق الرجال كلّا، وصم صوما يكسر شهوتك، ولا تصم صوما يضر بصلاتك، فإن الصلاة أفضل من الصوم، وكن كالأب لليتيم، وكالزوج للأرملة، ولا تحاب القريب، ولا تجالس السفيه، ولا تخالط ذا الوجهين البتة[30].

والظاهر أن المصطلح البلاغي عند الجاحظ يراوح نفسه ضمن نفس الحال التي وصل إليها الدرس البلاغي معه، فعلى الرغم من أن الدرس البلاغي مع الجاحظ قد شهد نقلة مهمة جدا في تاريخ البلاغة، إلا أنّه لم يستوعب الكثير من المفاهيم والمصطلحات، وإن كان قد أشار

إلى البعض منها، إلا أنه لم يذكر لها تسمية، وهو ما وقفنا عليه في عديد المسائل البلاغية، وقد يكون الأمر راجعا إلى عدم اهتمامه بالمصطلح، بالنظر إلى ما تقتضيه المرحلة التأسيسية الأولى للبلاغة من تأصيل لمسائلها، وتحديد لموضوعاتها التي كانت بخلاف العلوم الدقيقة قابلة للزيادة والنقصان، ومن ثم فإنه أمكننا القول أنّ فترة الجاحظ قد كانت مبكرة بالنسبة للوضع المصطلحي.

بعد مرور الدرس البلاغي بمختلف المحطات التي لم تكن في بداياتها الأولى سوى ملحوظات منثورة في الكتب والرسائل، والتي نُقلت في مجملها عن بعض المواقف التي كان يعيشها العرب في الجاهلية والإسلام، ثم انتقال الدرس البلاغي إلى بيئة علم الكلام أين تحقق له التأسيس المنهجي، والتطور المعرفي الذي صقله عبد القاهر الجرجاني في مرحلة توهج البلاغة العربية، وصلت البلاغة إلى المدرسة الكلامية المتأخرة، والتي تلخصت جهودها في الجزء الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي ابتداءً ، والذي كان قد وضع ما يشبه المعالم النهائية للعلم بأن نحى به إلى التقعيد والتقسيم، وخرجت البلاغة من مفهوم الفن للفن، واتجهت إلى الغاية التعليمية، ولئن كانت قد استفادت من جملة التقسيمات التي انشطرت إليها، إلا أنها دفعت الثمن بأن انتكس فيها الذوق، وغلب الجمود في غياب مخيف للإبداع والتجديد.

ثانيا: المصطلح البلاغي عند القزويني[31]:

أما الخطيب القزويني، فقد أصبحت البلاغة معه أكثر تنظيما وتقسيما، ولم تعد المسائل البلاغية شتاتا منثوراً في الكتاب، حيث حافظ على الشكل العام الذي انتهى إليه السكاكي في مفتاح العلوم، وهو ما لحظناه بعد اطلاعنا على كتاب الإيضاح، ومحاولة استقراء المباحث والآثار البلاغية فيه، وجدناه محيطا بأغلب المسائل البلاغية، كما وجدناه يعتمد التقسيم الثلاثي المشهور لعلوم البلاغة، حيث يورد كل مصطلح تحت الباب الخاص به.

فبعد أن أخرج الفصاحة وجعل لها مبحثا خاصا، وقارن بينها وبين البلاغة، انتقل إلى بسط أقسام البلاغة وذكر تحت كل قسم المصطلحات الخاصة به، وفيما يأتي سردٌ لبعضها:

1. علم المعاني:

وذهب القزويني إلى القول بحصر علم المعاني في ثمانية أبواب، وهي: أحوال الإسناد الخبري، أحوال المسند إليه، أحوال المسند، أحوال متعلقات الفعل، القصر، الإنشاء، الفصل والوصل، الإيجاز، والإطناب، والمساواة.

وعلى الرغم من أنه لا أحد أطلق مصطلح «علم المعاني» على بعض مباحث البلاغة قبل السكاكي، إلا أننا نتعجب حينما نجد مصطلحي «المعاني» و «البيان» مستعملين قبله[32]، فالزمخشري يشير إليهما في الكشاف، فيقول: «ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في عِلمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان»[33].

وبعد أن فرغ من الحديث عن تعريف علم المعاني انتقل إلى الحديث عن " الإسناد الخبري" و "أحوال المسند إليه" " أحوال متعلقات الفعل"، كما تحدّث عن " القصر" والإنشاء"، وانتقل إلى الحديث عن الفصل الوصل، لم يزد المصنف في تعريفهما على القول: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه» ، وهو تعريف شائع لدى المتقدمين، لم يرَ القزويني حاجة للتصرّف فيه، أو تبديله، لوضوحه من جهة، ولكونه جامعا مانعا من جهة أخرى، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من التأكيد على أهميته، وبيان أنّ من العلماء من قصَر البلاغة على معرفة الفصل والوصل، وما ذلك إلا لأهمية التفقه في أسرار هذا الباب، ولعله يقصد بالدرجة الأولى ما جاء في كتاب" البيان والتبيين، في قول الجاحظ: «قيل للفارسي، ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل والوصل.»

فالفصل لا يعني انقطاع العلاقة الدلالية بين الجملتين كما يوهم المصطلح، ولكنه يعني أن مستوى العمق يفصل بين الجملتين بوضع عنصر طارئ تطلبه إحدى الجملتين.

وانتقل المصنّف بعد ذلك إلى بيان حكم المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب، وهنا يقول: «إذا أتت جملة بعد جملة، فالأولى منهما إما أن يكون لها محل من الإعراب أو لا»، ثم ذكر أنه إذا قُصد التشريك بينهما في حكم الإعراب عُطفت عليها، وذلك كقوله تعالى: «**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**» سبأ [2]

وقوله تعالى: «**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**» البقرة [245]

ويقف الخطيب عند هذا المبحث طويلا، ويشبعه تفصيلا وبسطا، بما لم نقف عليه في كتب من سبقوه.

وعلى الرغم من أنّ عبد القاهر الجرجاني هو أوّل من أبان عن أسرار الفصل والوصل، وكشف أستاره في " دلائل الإعجاز"، إلا أنّ السكاكي والقزويني من بعده قد حددا مباحث الفصل والوصل، وجعلاها أكثر دقة ووضوحا. كما تعرّض القزويني إلى "الإيجاز والإطناب والمساواة" والتي تعدّ من المصطلحات والأساليب التي لا تتضح كثيرا إلا بالحديث عن أنواعها، وعرض أمثلتها، لأن الاتفاق على مقياس محدد لها يلجأ الدارسون إليه من الأمور الصعبة.

وقد عرّف الإيجاز بقوله: «هو بيان المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط»، وانتقل إلى نقيضه وهو الإطناب، فعرفه بقوله: «الإطناب هو أداؤه بأكثر من عبارته سواء كانت القلة أم الكثرة راجعة إلى الجمل أم إلى غير الجمل «أماّ المساواة، فهي «أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد، لا ناقصا عنه بحذف أو غيره، ولا زائدا عنه بنحو تكرير أو تتميم أو اعتراض»[34].

ولا شك أن أهم مصطلح بين المصطلحات الثلاثة، هو مصطلح الإيجاز، وذلك لما كان عليه حال العرب قديما من تفضيلهم وولعهم بأسلوب الاختصار على الإطالة والشرح والإسهاب، حتى رُوي عن "جعفر بن يحي" أنه كان يقول لكتّابه: «إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا»[35].

ولم يخالف المصنف ما درج عليه المتقدمون من دمج الإيجاز والإطناب والمساواة في باب واحد. ورغم وجود من وضع مصطلحات أخرى لهذه المفاهيم، كمصطلح "التضييق" و"الإشارة" في مقابل "الإيجاز"، ومصطلح "التطويل" في مقابل "الإطناب"...إلا أنّ هذه المصطلحات الثلاثة التي ذكرها القزويني هي التي كُتب لها القبول والشيوع، بينما أصبحت المصطلحات الأخرى مراتب لها، فصار "التطويل" مثلاً مرتبة زائدة عن الإطناب، وعُدّ إعياءً للمعنى.

وانطلاقا من كونه قد جعل المجاز العقلي من قبيل ما ينبغي بحثه في علم المعاني، رغم أنّ أسلافه كانوا يبحثونه في باب " علم البيان، فإنه يستهل حديثه عن المجاز العقلي بتعريف الحقيقة العقلية بأنها «إسناد الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر»[36].

وقسمها إلى أربعة أقسام هي:

. ما يطابق الواقع واعتقاده.

. ما يطابق الواقع دون اعتقاده.

. ما يطابق اعتقاده دون الواقع.

. ما لا يطابق شيئا منها.

ويتبين بوضوح أنّ سبب وسم الإسناد في هذين الضربين من الكلام بأنه " عقلي" هو استناده إلى العقل دون الوضع، وذلك لأنّ إسناد الكلمة أمر يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة.

ولربما كان سعد الدين التفتزاني موضوعيا حينما رد على القزويني لإدخاله المجاز العقلي في مباحث علم المعاني مبررا مذهبه بأن علم المعاني إنما يبحث عن الأحوال المذكورة من حيث إنه يطابق بها اللفظ مقتضى الحال، والظاهر أن البحث في الحقيقة والمجاز العقليين ليس من هذه الحيثية فلا يكون داخلا في علم المعاني، وإلا فالحقيقة والمجاز اللغويان أيضا من أحوال المسند إليه أو المسند.

2. علم البيان:

وانتقل المصنف بعد ذلك إلى باب علم البيان، فعرفه بقوله: «هو علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[37].

وكما هو الحال عند أغلب المتأخرين أصبح مصطلح " علم البيان" مختصاً بكونه القسم الثاني من أقسام البلاغة، فلم يعد مقابلا لمصطلح " البلاغة" بمفهومه الواسع الذي يستوعب أبواب البلاغة الثلاثة جميعا. وتحدّث فيه عن التشبيه، والاستعارة، والحقيقة والمجاز، والكناية...

ولما كان القزويني بصدد تلخيصه وإعادة توضيحه لم يشذ عن ظاهرة التقسيم؛ فقد اقتفى أثر السكاكي سواء في التقسيم العام للبلاغة (معاني، بيان، بديع)، أم من حيث تقسيم النوع الواحد إلى موضوعات متعددة، ولقد كان تابعا في الكثير من أقسام هذا الكتاب لأبي يعقوب السكاكي، كما كان تابعا له في تقسيم البديع إلى معنوي ولفظي.

والحق أننا وإن كنا لا ندّعي للقزويني السبق والتفرد بمفاهيم ومصطلحات الحقيقة والمجاز، إلا أننا ننبهر بشدة من الدقة التي يسير عليها في ضبط مصطلحات هذه المباحث، خاصة عندما يتطرق إلى المحترزات التي يقطع من خلالها بعدم دخول ما ليس منها إليها، ومما ذكره هنا القول في الحقيقة والمجاز قوله: «وقد يفيدان باللغويين الحقيقة الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب فقولنا المستعملة احتراز عما لم يستعمل فإن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة وقولنا فيما وضعت له احتراز عن شيئين، أحدهما ما استعمل في غير ما وضعت له غلطا كما إذا أردت أن تقول لصاحبك خذ هذا الكتاب مشيرا إلى كتاب بين يديك فغلطت فقلت خذ هذا الفرس .

3.علم البديع:

أ.المحسنات اللفظية:

فأما بالنسبة للضرب الأول (المعنوي) ، فقد أحصى المؤلف اثنين و ثلاثين نوعا و هي المطابقة و المقابلة و مراعاة النظير و المشاكلة و المزاوجة و الرجوع و التورية و الاستخدام واللف والنشر والجمع والتفريق والجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتقسيم والتجريد والمبالغة المقبولة والمذهب الكلامي وحسن التعليل والتفريع وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح ، والاستتباع ، والإدماج، والتوجيه ، والهزل الذي يراد به الجد ، وتجاهل العارف ، والقول بالموجب ، وأسلوب الحكيم ، وأخيرا الاطراد.

ب . المحسنات المعنوية:

وكما كان للكلام أوجه حُسن معنوية، فمن الضروري أن تكون له محسنات لفظية تُنمق ألفاظه وتصبغ معانيه بألوان مختلفة، وذلك إن دل على شيء، إنما يدل على ملاحقة الألفاظ للمعاني، وتتبعها لها، فالمعاني مطروحة على الرصيف تنتظر سابك ألفاظها.

وقد استعرض المؤلف سبع أنواع من المحسنات اللفظية وهي: الجناس ومنه التام والمحرف والناقص، ورد العجز على الصدر، والسجع، والموازنة والقلب، والتشريع، ولزوم ما لا يلزم.

كما ختم كتابه بذكره لباب مهم ألا وهو "السرقات الشعرية" وما يتصل بها من اقتباس وتضمين وعقد وحل وتلميح، ثم في النهاية يذكر لنا المؤلف في فصل فرعي أخير المواضع التي ينبغي أن يتأنق فيها المتكلم، كالابتداء نحو: قفا نبك.

ولقد كان القزويني في أكثر أحواله في هذا الباب قاصدا إلى المشهور من الظواهر البديعية، مستغنيا في الآن ذاته عما هو متروك مهجور، وإن كان موجودا، ذلك بأن اعتماد القزويني التحديد والتخصيص، وإن كان له فضل تهذيب فنون البديع، التي وصل عددها إلى ما يربو على التسعين عند ابن منقذ، وما يربو على المئة والعشرين عند ابن الأصبع المصري، إلا أن الخطيب قد أهمل الكثير منها، على غرار الترديد، والتشطير، والتفسير ...

والواقع أنّ القزويني قد ساير شيخه السكاكي في طريقة التقسيم هذه، وهي طريقة مبنية على أساس منطقي ذهني، وليس على أساس فني، أو اعتبارات بلاغية جمالية فاشتراك المشبه مع المشبه في الصفة، أو عدم اشتراكه فيها ليس من الاعتبارات الجمالية، أو البلاغية في شيء.

وعموما فإنه أمكننا القول:

. إنّ المقارنة بين جهود المدرستين من خلال كتب الجاحظ والقزويني تجعلنا نستنتج أنّ جهود المدرسة الكلامية المتقدمة قائمة على الاستطراد والجدل، كما أنّ المصطلح البلاغي معها كان في مهده، إلى جانب أنها اتخذت البلاغة وسيلة للدفاع عن القرآن الكريم والعناية به، أما المدرسة الكلامية المتأخرة فإن جهودها منصرفة بعناية إلى الغاية التعليمية، وذلك واضح من

خلال الحدود والتقسيمات، والانضباط الصارم الذي أصبحت عليه البلاغة من حيث كونها لها موضوعها الخاص، ومصطلحاتها الخاصة، ما يجعلها مادة سائغة للمتعلم.

إنّ المشروع الرقمي الذي نعرض إليه في هذا الورقات يتماشى مع الغاية التعليمية للبلاغة، ويتخذ الرقمنة وسيلة لتيسير تعلمها، من خلال وضع معجمين أحدهما مدرسي يشتمل على عدد محدود من المصطلحات، وآخر موسوعي يشمل كافة مصطلحات العلم على شكل مداخل معجمية مدّعمة بكافة الوسائط التي تشدّ انتباه المتعلم وتساعده عبر مختلف المراحل.

. رغم أفضلية الجهود المصطلحية للقزويني على جهود الجاحظ من ناحية ما لقيته من قبول في الأوساط التعليمية وسهولة تقسيماتها، إلا أن مشروع إعداد معجم رقمي للبلاغة العربية يتصف بالصعوبة البالغة، وذلك من منطلق عسر التوفيق بين حركية الفن (البلاغة) وضوابط العلم (علم المصطلح)، ورغم ذلك يمكن أن تكون بدايته على الصعيد المدرسي التعليمي المصبوغ بصبغة الشروح المدعومة بالوسائط الرقمية (الصورة، الفيديو الصوت، المؤثرات...).

خاتمة:

وفي ختام هذا البحث نخلص إلى جملة من النتائج نجملها في النقاط الآتية:

. رغم اتصاف كتب الجاحظ بالموسوعية، إلا أنه أغفل فيها الحديث عن الكثير من المسائل، وذلك لكونه من أوائل المصنفين في البلاغة، ولا شك أنّ ذلك وحده فيه مدعاة إلى الوقوع في الغلط والسهو والنسيان، على عكس المدرسة الكلامية المتأخرة مع القزويني الذي طرق جل المسائل البلاغية، ووضع مصطلحاتها ومفاهيمها.

تتباين جهود القزويني عن جهود الجاحظ بأنّها جاءت منظمة، فكل باب له أقسام تندرج تحته، وهو ما لم يكن في كتب المدرسة الكلامية المتقدمة التي كانت المسائل البلاغية فيها منثورة في طيات الكتب، تعرف خلطاً واسعاً لا طريق معه إلى الترتيب.

.تختلف الجهود البلاغية للجاحظ عن جهود القزويني في كون الأول قد أدخل الكثير من المسائل غير البلاغية في كتبه، واستطرد في الأمثال والشواهد، إلا أنّ البلاغة مع القزويني أصبح لها حدود صارمة لا تخرج عنها.

. أورد الجاحظ في كتبه بعض القضايا إلا أنّه لم يصطلح عليها، وإنما اكتفى بالتمثيل، أو الإشارة إليها.

. شهد المصطلح البلاغي تطوراً كبيراً جداً مع القزويني، وذلك بفعل المراحل الزمنية الطويلة التي مرّ بها، إلى جانب جهود المدارس البلاغية المتلاحقة، التي صقلته وأوصلته إلى حالة من النضج لم يكن عليه مع المتقدمين.

. إنّ المصطلح البلاغي في كتابي القزويني في كتاب الإيضاح قابل للتجاوب مع المتطلبات الرقمية العصرية، حيث يمكن تجسيده على شكل برنامج حاسوبي معجمي يسع المصطلحات البلاغية جميعا، من خلال وضعها في قوالب رقمية مختلفة بحسب التدرج العلمي للمتعلم، ولا يعني ذلك التخلي عن جهود الجاحظ وإنما يمكن الإفادة منها في التمثيل والشرح.

الهوامش:

[1].هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب الكناني الليثي المشهور بالجاحظ لجحوظ عينيه، إمام من أئمة اللغة والأدب، وله تصانيف هامَّة، توفي سنة 255هـ..

[2].الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ، 7 /132.

[3].المصدر نفسه: 4/3.

[4].الجاحظ(2002)، البيان والتبين، دار ومكتبة الهلال، ، 1/ 59.

[5].المصدر نفسه: ص144.

[6].الجاحظ: الحيوان، 93/1

[7].الجاحظ: البيان والتبيين،95/1.

[8].الجاحظ: الحيوان، ، 90/4.

[9].الجاحظ: البيان والتبين، 75/1.

[10].عبد القادر حسين: (1998)أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط1، ص 241.

[11].الجاحظ: البيان والتبيين،159/1.

[12].المصدر نفسه ،79/2.

[13].الجاحظ: الحيوان،150/5

[14].الجاحظ: البيان والتبيين106/1

[15].الجاحظ: المصدر نفسه، 106/1.

[16].الجاحظ: البيان والتبيين، 280/3

[17].ابن المعتز: (1990)،البديع، دار الجيل، ط1، ص60.

[18]- الجاحظ: البيان والتبيين، 4/ 56.55.

[19].عبد الفتاح لاشين: (1999)،البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، دار الفكر العربي، ط1، ص8.

[20].الجاحظ: الحيوان، 6 / 322.

[21].الجاحظ: البيان والتبيين، 105/1.

[22]..الجاحظ: البيان والتبيين، 105/1.

[23].عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 186/1.

[24].الجاحظ: البيان والتبيين، 116/1

[25].ابن المعتز(1990)، البديع، دار الجيل، ط1، ص147.

[26].ينظر: الجاحظ، الحيوان، 5/3.

[27].الجاحظ البيان والتبيين 1، 196.

[28].المصدر نفسه، / 196.

[29].المصدر نفسه، 193/1.

[30].المصدر نفسه، 101/2.

[31].هو أبو عبد الله محمَّد بن عبد الرحمن بن عمر العجلي الشافعي، المشتهر بجلال الدين القزويني، الفقيه، القاضي، تولَّى الخطابة بدمشق والقضاء بها، ثمَّ انتقل إلى قضاء الديار المصرية، كان متقنًا للأصول والعربية والبيان، وإليه ينسب كتاب «الإيضاح»، و«التلخيص» في علمي المعاني والبيان. توفي بدمشق سنة (739هـ).

[32].ينظر: أحمد مطلوب،(1967)، القزويني وشروح التلخيص، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، ص291.

[33].الشريف الجرجاني: الحاشية على الكشاف، تح: رشيد بن عمر، دار الكتب العلمية، ط1، ص112.113.

[34].الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط3، 171/3.

[35]- أبو هلال العسكري: (1999)،الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ص173.

[36].الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، 80/1.

[37].الخطيب القزويني: (2003)، الإيضاح في علوم البلاغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م، ص163.

قائمة المصادروالمراجع:

- 1.أحمد مطلوب، (1967)، القزويني وشروح التلخيص، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1.
- 2.الجاحظ:(2002)، البيان والتبين، دار ومكتبة الهلال.
- 3.الجاحظ: (1424)،الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.
- 4.الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط3.
- 5.الخطيب القزويني:(2003)، الإيضاح في علوم البلاغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1.
- 6.الشريف الجرجاني: الحاشية على الكشاف، تح: رشيد بن عمر، دار الكتب العلمية، ط1.
- 7.عبد الفتاح لاشين(1999)، البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، دار الفكر العربي، ط1.
- 8..عبد القادر حسين: (1998)، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط1.
- 9.عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1
- 10.ابن المعتز:(1990)، البديع، دار الجيل، ط1.
- 11- أبو هلال العسكري: (1999)،الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.